الفصل 2

لا تؤمن العقول المشككة بالطرق التقليدية

إضاءة على خلفيتي

لم أنجز هذا الكتاب لأروي قصة حياتي، ولكنها مهمة لمساعدة الكثيرين في فهم الخلفية التي أتيت منها. لقد اكتشفت أن الناس يختلقون كل أنواع الأعذار حين أقدم لهم النصائح الجيدة ذات المغزى، ويتمثل أحد أهم الأعذار التي سمعتها في هذا الصدد بالتالي: "لا أعلم شخصيا ما الذي يعنيه أن أكون في مرحلة متدنية بالفعل"، حسنا، أنا أعلم. قد تشعرون بالحزن من أجلي - عندما تسمعون بعضا مما لا يصدق من الأمور التي مررت بها - ولكن لا تفعلوا، فأنا قادر على أن أنظر إلى حياتي من منظور طبي تحليلي، ولا تشكل جميع تجاربي سوى جزء مما أنا عليه الآن. أحب حياتي، وأشعر بالسعادة لتوفر الفرصة لي كي أساعد الآخرين على إخضاع المشكلات والعقبات التي تعترض طريقهم في الحياة، وقد أتاح لي ماضيَّ فهم حقائق إنسانية أساسية، والتحكم بمدركاتي بغية الانتقال إلى المرحلة التالية. لا أشاهد التلفاز كثيرا، ولكن الضحك يتملكني عندما أرى ما تمرره الدراما عبر شاشته هذه الأيام، حيث أعتقد أنني نلت كفايتي منها في حياتي الحقيقية المعاشة، وهو ما يجردها بالتالي من أي أثر علي.

أحسست منذ سن مبكرة برغبتي في الانخراط في مجال الأعمال، وكنت منبهرا بفكرة إيجاد أو ابتكار شيء يتمتع بقيمة تجعل الآخرين على استعداد لدفع

المال بغية اقتنائه. شكلت المدرسة واللهو إلى حد ما جزءا اعتياديا من طفولتي، ولكن متعتي الحقيقية نبعت على الدوام من قيامي بشيء يتعلق بأعمالي، وقد كنت في الحادية عشرة فحسب حينما لاحظت أن الناس يحملون مفاتيحهم في سلاسل خرزية، وأنهم على استعداد لشراء أي شيء مصنوع من العُقد (لم تكن السبعينيات مميزة بأزيائها فحسب). تعلمت كيفية صنع سلاسل معقودة لحمل المفاتيح، لأنني كنت قادرا على صناعتها بسرعة، ولأن الناس كانت تقتنيها بالسرعة نفسها تقريبا. بدأت البحث عن شيء أكثر تفردا حتى قبل أن يركد سوق سلاسل المفاتيح، شيء يمكن أن يدر أرباحا أكثر، واكتشفت أن بإمكاني أن أصوغ من المرجان الأسود قطع حلي أنيقة تدر من الربح ما يفوق سلاسل المفاتيح، ومع أن اهتماماتي التجارية هذه لم تشكل سوى البداية فحسب، إلا أن العوائد كانت ممتازة!.

شكلت المدرسة واللهو إلى حد ما جزءا اعتياديا من طفولتي، ولكن متعتي الحقيقية نبعت على الدوام من قيامي بشيء يتعلق بأعمالي.

تذكروا أن هذا الكتاب لا يدور حول مجال الأعمال، وأنني لا أحاول تعليمكم كيفية البدء بعمل أو إدارته، وأن كل ما أرنو إليه هو إلقاء بعض الضوء على شخصيتي لا أكثر، (لم يعد هنالك بالمناسبة رواج يذكر لسلاسل المفاتيح الخرزية). لقد كنت، وما زلت، رجلا مندفعا يملك شخصية عملية، وقد أحببت مجال الأعمال والفوائد التي جلبها علي، وكنت أجني بانتظام أرباحا يحسدني عليها البالغون، ولم أكن أتخيل أن ذلك سيتم بتلك السهولة. كانت علاقتي، لسوء الحظ، أقل من ودية مع زوج أمي، وبدا أن قدرتي على الكسب أكثر منه قد أضفت مزيدا من النفور على تلك العلاقة.

لاحظوا أنني لم أستخدم مصطلح "نمط الشخصية - أ"* بعد، فقد أصبحت على فهم بأن إدراك الناس لكلمات أو عبارات معينة يمكن أن يوجه معتقداتهم أو

(*) نمط شخصية يتصف أصحابها بالطموح، ونفاد الصبر، والتنافسية الشديدة، ويعتقد بصورة خاصة أنهم يتأثرون بالضغوط أكثر من غيرهم. (المترجم)

سلوكياتهم في اتجاهات معينة. يعد مصطلح "نمط الشخصية - أ" وفق إدراكي ذا دلالات سلبية، ولا تمثل المدركات السيئة بهذا الصدد سوى جزء من القاموس الشعبي الرائج، وبما أن بعض الناس يحملون بالفعل نظرة سلبية إلى أصحاب الشخصيات من النمط السابق، فلا أريد القول إن شخصيتي تنتمي إليه. إنني أنظر، على سبيل المثال، إلى بعض من يتصفون بتلك الشخصية على أنهم مندفعين إلى درجة يفقدون معها التوازن في حياتهم، وقد أكون شخصا مندفعا، أو أقوم بأكثر مما يقوم به معظم الناس في مواقف معينة، ولكنني أملك التوازن في حياتي، علاوة على تقديري لعائلتي وحياتي الروحية.

كانت علاقتي أقل من ودية مع زوج أمي، وبدا أن قدرتي على الكسب أكثر منه قد أضفت مزيدا من النفور على تلك العلاقة.

انتقلت بنجاحي في مجال صناعة المجوهرات إلى المرحلة التالية عن طريق القيام بإصلاحها أيضا، وقد بدأت، استنادا إلى قدرتي على إصلاح المجوهرات وصناعتها، في بيع أنواع جديدة وأنيقة منها. لم أنخرط في مجال عمل العائلة، أو أتبع ما اقترحه مستشارها في شؤون الأعمال، لأنني أردت أن أسلك مجال الأعمال مستقلا. كانت تجارة المجوهرات نتيجة طبيعية لتقدم تجاربي في ذلك المجال، وقد استمتعت بكل بساطة لكوني تاجر مجوهرات الجيل الأول من عائلتي.

التحقت عندما كنت في المدرسة الثانوية ببرنامجها للتدريب العملي، وحاولت العمل لحساب شخص آخر بدوام جزئي، ولكن ذلك لم يفلح على الإطلاق (أعلم الآن تماما ما لم أكن موفقا به، أو أرغب بتذكره خلال عملي في مجال الوجبات السريعة). لقد أشعرني مجال الأعمال بالإثارة، وهو ما لا ينطبق على عملي بدوام جزئي، لأنه لم ينم من تفكيري التجاري مطلقا، وهكذا عدت إلى مديري في المدرسة، وعملت على عقد صفقة معه.

تتلقى معظم المدارس العامة تمويلا محددا من الحكومة تبعا لعدد الطلاب المسجلين فيها، وإذا ترك الطلاب المدرسة، أو توقفوا عن ارتيادها فإنها تخسر آلاف الدولارات من ذلك التمويل. أخبرت المدير مع نهاية السنة قبل الأخيرة لي في المدرسة بأنني لا أحبها، وأنوي تركها ببساطة، وأنني على علم بأنه قد يخسر التمويل إن فعلت. اقترحت القيام بتسوية يسمح لي من خلالها بأن أعمل لصالح نفسي بدوام كامل، وأتدرج بمفردي في الدراسة - عوضا عن استنزاف موارد المدرسة في تدريسي وتوفير مناهجي - بما يمكنني من حيازة شهادتي، والتخرج مع زملائي في نهاية العام.

اقترحت القيام بتسوية يسمح لي من خلالها بأن أعمل لصالح نفسي بدوام كامل، وأتدرج بمفردي في الدراسة - عوضا عن استنزاف موارد المدرسة في تدريسي وتوفير مناهجي - بما يمكنني من التخرج مع زملائي في نهاية العام.

وافق المدير على اقتراحي ببساطة، ودون أي سؤال أو تفكير. لم أذهب إلى المدرسة مطلقا خلال سنة التخرج، وواصلت إدارة عملي، وحزت على شهادتي، وسيسركم أن تعلموا أنني حصلت على درجات ممتازة.

وبالرغم من أن جميع طلاب السنة الأخيرة في المدارس الثانوية تقريبا يودون لو كان بإمكانهم النجاح في الصفوف بمفردهم دون حضورها، فإن عملي لم يكن مجرد حجة لعدم حضور الصفوف. لقد تحول إلى ما يشبه الشركة بحد ذاته، ونمى لدرجة قمت فيها بتوظيف بعض من زملائي في الدراسة، وأصبحت أجني ما يفوق الألف دولار في الأسبوع!.

* **معلومة مفيدة: (تتغير المشاعر آخرا).**

لقد كان أدائي ممتازا وفقا لمقاييس المجتمع، واقتنيت سيارة رياضية رائعة، وأصبح لدي دخل كبير ثابت، وتجارة مجوهرات مزدهرة، وصار بإمكاني شراء أشياء يحلم الكثير من البالغين بامتلاكها، علاوة على اقتراني بصديقتي في المدرسة

الثانوية. شعرت بالفخر نتيجة ما حققته، ولم أتخيل أن أمر بظروف أفضل من تلك التي كنت أعيشها في حينه. ظننت، بالإضافة إلى ما سبق، أن إتقان هذه اللعبة المسماة بالحياة يعد أمرا في غاية البساطة، ولم أكن أفهم سبب كل الشكوى والضجة التي يثيرها الناس حول صعوبتها، ولكن الآتي كان أعظم، ولم أكن مهيأ لاستقباله في الحقيقة.

حملت زوجي بطفل، وأنجبته في نهاية المطاف، ليوضع في قسم العناية الفائقة لمدة أسبوعين بعد ولادته. لم يسبق لي آنذاك التواجد بقرب أي ممن احتاجوا العناية الطبية في أي مستشفى، علاوة على عاصفة العواطف الجياشة التي أثارها قدوم طفلي، والتي لم أكن مهيأ على الإطلاق للتعامل معها. أحسست بأن الله أنعم علي، ولكنه وضعني أمام تحد في الوقت ذاته، وكنت سعيدا وخائفا في آن واحد، وحائرا مشوشا قبل كل شيء، لأنني جهلت ما ينبغي علي فعله أو الشعور به. كان بمقدوري، مع ذلك، تجاوز هذه المشكلة بطريقة أو بأخرى، لولا اعتراف زوجي بأن الطفل الذي أحببته قبل أن يأتي إلى هذا العالم لم يكن من صلبي. حطمني ذلك الاعتراف، وشعرت وكأن أحدا انتزع قلبي من وسط أضلاعي، وتألمت بما يفوق قدرتي على الاحتمال.

شعرت، على الرغم من فداحة الموقف، بأنه ينبغي علي البدء بصورة أو بأخرى في البحث عن طريقة لتجاوز هذه المحنة. أراد القدر - عندما بدأت للتو في التعايش وإيجاد سبيل للتعامل معها، وبالرغم من بعدي الشديد عن تجاوز الألم والحيرة الناتجة عنها - أراد القدر أن يقتل والدي بطريقة وحشية، ويتوفى جدي وزوج والدتي بالسرطان، ويموت عمي نتيجة تحطم الطائرة التي كان يستقلها، وقد حدث كل ذلك لي قبل بلوغي سن الواحدة والعشرين.

كنت أملك ثلاثين ألف دولار في البنك، عندما بدأ كل ذلك بالحدوث، ووجدت بعد انقضائه أنني فقدت أفرادا أعزاء من عائلتي، وأصدقائي، وكل أموالي، وتجارتي التي تدر علي مئة ألف دولار في السنة. كنت خارجا للتو آنذاك من فترة المراهقة،

وانتابتني الرغبة بالانتحار، وبدا أن لدي ما يكفي من الأسباب للقيام بذلك، وقد أدخلت في الحقيقة إلى المستشفى، وخضعت للعلاج بالأدوية لفترة من الزمن.

كنت أملك ثلاثين ألف دولار في البنك، عندما بدأ كل ذلك بالحدوث، ووجدت بعد انقضائه أنني فقدت أفرادا أعزاء من عائلتي، وأصدقائي، وكل أموالي، وتجارتي التي تدر علي مئة ألف دولار في السنة.

لقد تدهورت حياتي بشكل لا يصدق لدرجة أفردت معها مجلة "ناشيونال إنكوايرر" صفحة كاملة لعرض قصة نجاحي ومأساتي، وأؤكد لكم، مع علمي بسمعة تلك المجلة، أنها لم تكن بحاجة لاختلاق أي شيء فيما نشرته عني.

تطلبت عودتي إلى طبيعتي عملية مختلفة

تمكنت في نهاية المطاف، وكما أعتقد أنكم متأكدون منه الآن، من تجاوز تلك الحالة المتردية التي كادت تطيح بي، ولكن من المهم أن تفهموا أن ذلك لم يأت في لحظة إلهام معينة اكتشفت فيها ضرورة التغلب على معاناتي، أو عبر قراءة أو سماع شيء محدد ساعدني فجأة على قهر ألمي، والبدء بالإنجاز مجددا في حياتي. مررت، بصورة أو بأخرى، بما تتوقعون أنني كنت أمر به، فقد شعرت بالاكتئاب، وعاقرت الخمر بكثرة، وعشت حياة المتوحد، واستمعت إلى الموسيقى الكئيبة التي عززت من النظرة السلبية لدي. اعتقدت بأنني كنت بحاجة للوقت كي استوعب ما حدث لي، ولكنني علمت أن الشخص الذي كنته يختلف عن طبيعتي الحقيقية من عدة نواح.

لقد مررت بنجاح مذهل في وقت مبكر من حياتي، وأشبعت رغبتي في الخوض بمجال الأعمال عبر تحقيق العوائد المجزية، وقد بقيت ذكريات ذلك النجاح في ذهني، ووجدت نفسي أركز عليها بغية تجاوز نظرتي السلبية الكئيبة للأمور، وقررت أن أنجح مجددا في مجال الأعمال بعد أن فعلت ذلك في السابق.

استطعت تحقيق النجاح مجددا في مجال الأعمال خلال وقت قصير نسبيا، ولكن لا بد من الاعتراف بأن الحصول على قسط من الثروة مرة أخرى كان أسهل

بكثير من محاولة العودة إلى طبيعتي الحقيقية. كان تحقيق النجاح في أعمالي بمثابة أمر اعتيادي بالنسبة لي، مما وفر لي الوقت الذي أحتاجه كي أركز على محاولة معرفة ما يجعل الناس طبيعيين. تملكني فضول شديد لمعرفة الكيفية التي نسير بها حياتنا كبشر، علاوة على ما يفوق ذلك أهمية وهو الحاجة إلى فهم الآلية التي تمكنني من العودة إلى طبيعتي بأسرع وقت ممكن. شعرت بعد حدوث كل تلك المآسي بأنني كنت خاضعا لقيود نفسية قوية كالخوف من الفشل، والخوف من النجاح، والخوف من الوقوع في الحب، والخوف من فقدان أفراد عائلتي، واللائحة تطول.

استطعت تحقيق النجاح مجددا في مجال الأعمال خلال وقت قصير نسبيا، ولكن لا بد من الاعتراف بأن الحصول على قسط من الثروة مرة أخرى كان أسهل بكثير من محاولة العودة إلى طبيعتي الحقيقية.

*** نصيحة مفيدة: (تجاهل مشاعرك حين لا تتناغم مع أهدافك).**

أود التأكيد ثانية على عدم حدوث المعجزات المفاجئة أو القفزات العملاقة هنا. بدأت التحول التدريجي بإدخال تحسينات بسيطة على حياتي، فأزحت الستائر عن نوافذ المقطورة التي كنت أقيم فيها لأقهر الظلام الذي كان يعمها، وأسمح للنور بإضاءتها مجددا، ومن ثم فتحت النوافذ ذاتها كي أسمح للهواء العليل بدخولها، وبث الحيوية فيها. أخذت في الاستماع لما يتصف بإيجابية ومرح أكبر من الموسيقى، وأدركت أن تلك الأشياء البسيطة هي ما أحدث الفرق الكبير بالنسبة لي. واصلت دراسة وضعي آنذاك، ومقارنته بالذي أرغب في الوصول إليه، وقد اشتعلت جذوة الإيمان في قلبي مجددا، وأعلمت أصدقائي بفتحي النوافذ، وتغييري نمط الموسيقى، وبأنني سأنجح في النهاية بلا ريب. فرح أصدقائي وأفراد عائلتي عندما رأوني أعود للواقع والناس ثانية، وأنجح مرة أخرى في أعمالي، حيث بدأ الناس يسألونني: "غاري، كيف تمضي قدما؟"، وقد كانت تلك هي اللحظة التي أدركت فيها مدى المتعة الحقيقية لإشراك الآخرين بما توصلت إليه.

لقد كانت تلك هي اللحظة التي أدركت فيها مدى المتعة الحقيقية لإشراك الآخرين بما توصلت إليه.

لا تفيد كتب مساعدة الذات التقليدية سوى مؤلفيها

تتجسد إحدى الحقائق التي توصلت إليها، وأطلعت الناس عليها في عدم وجود الكثير مما أمكنني التعويل عليه آنذاك في إرشادي إلى كيفية المضي قدما، بالرغم من مآسي الحياة، وأعتقد في الحقيقة أن كتب التفكير الإيجابي التي تعج بها الرفوف، لا تفيد أحدا سوى مؤلفيها. أرجو ألا تسيئوا فهمي، فلست أرى عيبا في القيام بتأليف كتاب طلبا للربح، ولكنني أجد مشكلة في ذلك عندما تتمثل غاية الكتاب المعلنة في مساعدة الآخرين، دون أن يأتي بأساليب أثبتت نجاعتها بمرور الزمن، أو أخرى تقدم الفائدة عوضا عن إلحاق مزيد من الضرر بقرائها. لقد لمست بنفسي أن تلك الكتب لا تقدم للناس سوى القليل جدا من الأجوبة العملية التي تساعدهم على تجاوز مآسيهم، أو الارتقاء من أوضاعهم الجيدة إلى ما هو أفضل منها، علاوة على اعتقادي الصريح بأن العديد من أنصار التفكير الإيجابي لا يقومون بما يتعدى قراءة بعض الكتب، وتكرار ما فيها من فلسفات الآخرين عن التفاؤل.

*****

● الخلاصة

■ إن اعتقدتم أنني مجرد خبير في مساعدة الذات، يقول كلاما تقليديا مكررا، أو لا تتعدى خبرته الفعلية ما تلقاه في فصول الدراسة، فأود إخباركم بأنكم مخطئون.

■ قد تثير المآسي التي مررت بها الذهول بكل معنى الكلمة، ولكنني لم أتخذ منها ذريعة للاستسلام على الإطلاق.

obeikandl.com